## ٣ ــ كلام العرب

اما العرب المحتج بهم فقد عرفت من هم في القسم الثالث من هذا البحث باسهاب فلا نعيد منه هنا شيئاً ، فقد اقتصر العلماء على تدوين كلام القبائل الضاربين في وسط الجزيرة: كأسد وقيس وتميم وهذيل ، والذي دوّن منه كلام لبعض افراد منهم . فاذا نسبت هؤلاء الافراد الى قبائلهم ، ثم نسبت هذه القبائل القليلة الى قبائل العرب عامة ، عرفت صدق ابي عمرو بن العلاء وصحة مذهبه حين قال :

ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعر كثير [1] » .

ومن ينعم النظر في معاجم اللغة وكتب قواعدها يجد كتب اللغويين أوفرَ حظاً في الاستشهاد بالشعر والنثر على السواء في إثبات معنى أو استعمال كلمة ، ويجد النحاةَ يكادون يقتصرون على الشعر . وزادت عنايتهم بالشواهد الشعرية مع الزمن ؛ حتى « كان أبو مسحل

---

(١) في طبقات فحول الشعراء لابن سلام : قال عمر بن الخطاب « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل . فحفظوا ذلك وذهب عليهم منه كثير . اهـ ص ٢٢ طبعة دار المعارف بشرح محمود محمد شاكر

يروي عن علي بن المبارك الأحمر أربعين ألف بيت شاهد في النحو»[1]، بل كان أبو بكر الأنباري (ـ ٣٢٨) يحفظ فيما ذكر ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن الكريم»[2]. ونحن إن قابلنا الشواهد النثرية عند هؤلاء وأولئك بالشواهد الشعرية وجدناها ضئيلة جداً، فإذا أضفت إلى ذلك كله، حملهم على الصرورة الشعرية كل شعر لم ينطبق على قواعدهم ومقاييسهم[3] التي بنوها على استقراء ناقص جداً، عرفت أن أساس تلك القواعد والقوانين غير متين من الناحية النظرية على الأقل.

---

(١) بغية الوعاة ص ٢٨٢، ٣١٨، ٣٣٤.

(٢) طبقات الحنابلة ص ٣٢٨

(٣) بل كان بعض قدماء النحاة لا يستشهد بشعر جرير والفرزدق والاخطل ولا يتورع عن تلحينهم فيما لا ينطبق على قواعدهم. هذا عبد الله بن ابي إسحاق الحضرمي وهو مولى يلحن الفرزدق في قوله:

مستقبلين شمال الشام تضربنا ... بحاصب من ندف القطن منثور

على عمائمنا تلقى، وأرحلنا ... على زواحف تزجى، مخها ريز

ويقول له: «الا قلت: على زواحف نزجيها محاسير» فيغضب الفرزدق قائلاً «والله لأهجونك ببيت يكون شاهداً على ألسنة النحويين أبداً» = ويهجوه بقوله:

فلو كان عبد الله مولى هجوته ... ولكن عبد الله مولى مواليا

الشعر والشعراء ٣٥ «بتحقيق احمد محمد شاكر وانظر خزانة الأدب للبغدادي «١/٢١٧ - ٢١٩» طبع السلفية ومراتب النحويين ص ١٢. فيستمر عبد الله في تلحينه ذاهباً الى انه ينبغي ان يقول: مولى موالٍ. ثم يخضع الفرزدق لسلطان النحو فيتشوف الى أن يصلح ابن ابي اسحاق مافي شعره من خلل ـ الموشح ص ١٠٠ =

. . . . . .

ولما سمع قول عثمان البتي الفصيح الرائع الملقب بالعربي لفصاحته الذي قال فيه يونس : « ماجاءنا عن أحدمن روائع الكلام ماجاءنا عن البتي » لما سمع قوله :

كورهاء مشنيّ إليها حليها

قال : أخطأ عربيكم : إنما هو : مشنوء . » — إنباه الرواة ٣٤٤/٢ توفى البتي سنة ١٤٣ هـ

ومن قبله كان يونس بن حبيب يؤاخذ رؤبة واباه العجاج باشتقاقات يشتقانها على غير القياس عنده حتى ضاق به رؤبة وقال له : « علينا أن نقول وعليكم أن تعربوا . »

هذا « وقدارتقى ببعضهم الامر الى تلحين بعض فحول الجاهلية كما وقع لعيسى ابن عمر . فانه كان يقول : أساء النابغة بقوله : « ... في أنيابها السم ناقع » وكان عليه ان يقول « ناقعاً » . وعيسى هذا معروف مثل ابن أبي إسحق بأنه كان يطعن على العرب ويخطىء المشاهير منهم » ( انباه الرواة ٣٧٥/٢ وطبقات النحويين واللغويين ص ٢٦ ) وكان ابو عمرو بن عبد العـــلاء وابن ابي اسحاق هذا والحسن البصري وابن شبرمة يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم — تاريخ آداب العرب للرافعي ٣٦٨/١

ويقول ابن فارس : « ماجعل الله الشعراء معصومين يوقون الغلط والخطأ فما صح في شعرهم فمقبول ، وأما أبنيته العربية وأصولها فهو مردود كقوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمي

وقوله : لمـا جفا اخوانه مصعباً

وقوله : قفا عند مما تعرفان ربوع

فـكله غلط وخطأ » اهـ — مجلة المجمع العلمي العربي ٣٢٧/١٤

وكان الاصمعي ينكر ان يقال ( أبرق وأرعد ) وانمـا الصواب ( برقت السماء ورعدت ) فلما أنشد قول ذي الرمه :

إذا خشيت منه الصريمة أبرقت له بَرْقة من خلّب غير ماطر

أنكره ، ولم يكن يرى ذا الرمة حجة ، فلما انشدوه بيت الكميت :

أبرق وأرعد يا يزيـد فما وعيدك لي بضائرْ

قال : « الكميت جرمقاني » !! — لسان العرب : مادة ( برق )

## (٥)

## بعض قواعدهم في الاحتجاج [١]

١ ــ المسموع إما مطرد وإما شاذ . والاطراد والشذوذ أربعة أضرب :

١ ــ مطرد في القياس والاستعمال معاً ، كرفع الفاعل ونصب المفعول . وهذا أقوى مراتب الكلام .

٢ ــ مطرد في القياس شاذ في الاستعمال نحو الماضي من يذر ويدع [٢] . وقولهم ( مكان مبقل ) هذا هو القياس ، والأكثر في السماع ( باقل ) ، وكذا مجيء منصوب عسى اسماً صريحاً مثل ( عسى زيد قائماً ) غير أن الأكثر مجيئه فعلاً .

٣ ــ مطرد في الاستعمال شاذ في القياس ، نحو قولهم : ( استحوذ استنوق ، استصوب ) والقياس الإعلال ( استحاذ .. ) .

٤ ــ شاذ في القياس وفي الاستعمال معاً كقولهم : ثوب مصوون ، وفرس مقوود [٣] .

---

(١) مقتبسة بتصرف من كتاب « الاقتراح للسيوطي » ص ٢٤ - ٤١

(٢) علمت ما في هذا الحكم من خطأ ص ٣٠

(٣) تتمة ـ قال ابن هشام :

اعلم انهم يستعملون « غالباً ، وكثيراً ، ونادراً وقليلا ، ومطرداً » فالمطرد لا يتخلف ، والغالب اكثر الاشياء ولكنه يتخلف ، والكثير دونه ، والقليل دونه ، والنادر أقل من القليل . فالعشرون بالنسبة الى « ٢٣ » غالب ، والخمسة عشر بالنسبة اليها كثير لا غالب ، والثلاثة قليل ، والواحد نادر .

٢ ــ لا تشترط العدالة في العربي المروي عنه وإنمـــا تشترط في الراوي .

٣ ــ يقبل ما ينفرد به الفصيح لاحتمال أن يكون سمع لغة قديمة باد المتكلمون بها .

٤ ــ اللغات على اختلافها حجة كلها . ألا ترى أن لغة الحجازيين في إعمال ( ما ) ، ولغة التميميين في تركه كل منهما يقبله القياس ؟ ، فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها [1] .

٥ ــ في تداخل اللغات :

إذا اجتمع في كلام الفصيح لغتان فصاعداً كقوله :

وأشرب الماء ما بي نحوُه عطش  إلا لأن عيونه سال [2] واديها

فقال (نحوهُ) بالإشباع و(عيونهْ) بالإسكان... اعتبرتا معاً، لأن العرب قد تفعل ذلك للحاجة إليه في أوزان أشعارها وسعة تصرف أقوالها ويجوز أن تكون لغته إحداهما، ثم انه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى.. قال الأصمعي : اختلف رجلان في (الصقر) فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين، فتراضيا بأول وارد عليهما، فحكيا ما هما فيه، فقال: «لا أقول كما قلتما، انما هو الزقر» وعلى هذا يتخرج جميع ما ورد من التداخل

---

(١) قلت : أورد ابن فارس في كتابه « الصاحبي » طائفة من هذه اللغات ثم قال: « .. وكل هذه اللغات مسماة منسوبة الى اصحابها . وهي وان كانت لقوم دون قوم ، فانها لما انتشرت تعاورها كل .» ــ الصاحبي ص ٢٢

(٢) كذا، والذي في لسان العرب مادة «ها» : «سيل واديها» ولعلها الصواب

نحو لغة ( قلى يقلى ) أخذ ماضيها من لغة (قلي يقلي ) ومضارعها من لغة ( قلي يقلى ) ومثلها ( سلى يسلى ) .

٦ ــ إذا دخل دليل الاحتمال سقط به الاستدلال .

رد أبو حيان بهذه القاعدة على ابن مالك كثيراً في مسائل استدل بها ، منها استدلاله على قصر ( الأخ ) بقوله :

أخاك الذي إن تدعه لملمة  يجبك بما تبغي ويكفيك من يبغي

فإنه يحتمل أن يكون منصوباً بإضمار فعل ( الزم ) . وبذا لا يصح الاستدلال بالبيت على قصر (الأخ) .

٧ ــ كثيراً ماتروى الابيات على أوجه مختلفة، ويكون الشاهد في بعض دون بعض :

روي قول الشاعر :  ولاأرض أبقلَ إبقالَها

على وجه ثان :  ولاأرض أبقَلتِ ابقالها

بالتذكير مرة، وبالتأنيث مع نقل حركة الهمزة إلى التاء مرة أخرى، فان صح أن القائل بالتأنيث هو القائل بالتذكير ، صح الاستشهاد به على الجواز من غير الضرورة ؛ وإلا فقد كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على سجيته التي فطر عليها . ومن هنا تكثر الروايات في بعض الأبيات .

٨ ــ لايحتج في اللغة العربية بكلام المولدين والمحدثين ، فابن هرمة (ــ ١٥٠ ) آخر الإسلاميين المحتجُ بأقوالهم ، وبشار ( ــ١٦٧)

رأس المحدثين غير المحتج بكلامهم[1].

٩ ـ لايجوز الاحتجاج بشعرٍ ولانثر لايعرف قائله إلا إذا رواه عربي ممن يحتج بكلامه[2]، مخافة أن يكون لمولد أولمن لايوثق بفصاحته ، فمثلاً أجاز الكوفيون :

١ ـ إظهار (أن) بعد (كي) مستشهدين بقول الشاعر :

أردت لكيما أن تطير بقربتي  فتتركها شناً ببيداء بلقع

٢ ـ وأجازوا دخول اللام في خبر لكن واحتجوا بقول الشاعر:

ولكنني من حبها لعميد

وكلا الرأيين لايثبت لأن البيت الأول مجهول القائل فلايحتج به ، والشطر الثاني لايعرف قائله ولاشطره الأول ، وما بني عليهما غير صحيح[3].

هذا خلاصة ما أتى به السيوطي من قواعد في الاحتجاج ، بعضه موضع نظر اليوم وبعضه سليم لاخلاف فيه :

---

(١) سبق هذا ص ١٩

(٢) انظر القياس في اللغة العربية للسيد محمد الخضر حسين ص ٣٨

(٣) وابن هشام لايسلم دائماً باسقاط الاحتجاج بالمجهول وهـذه حجته : « ولو صح ذلك لسقط الاحتجاج بخمسين بيتاً من كتاب سيبويه فان فيه الف بيت عرف قائلوها وخمسين مجهولة القائلين » اهـ. قلت: وليكن ذلك ، وماذا فيه ؟ والمنهج الحق يقتضي هذا الاسقاط .

فأما الذي هو موضع نظر اليوم فكالقاعدة الثالثة والسابعة، لقد كان الاقدمون يسجلون كل مايسمعون حينئذ ولو لغية رديئة او لهجة ضعيفة، فكثرت الوجوه في المسألة الواحدة دون تمييز بين ما عليه اكثر العرب وما انفرد به بعضهم . والهدف اليوم التنظيم والتشذيب والاخذ بالوجه الواحد الاصح فلا يستعمل غيره إلا في الضرورات ، وخيرٌ ان يحفظ في المطولات للفائدة العلمية النظرية دون استعمال . فلئن كان هدفهم قديماً الاستكثار من المعلومات والتباهي، إن هدفنا اليوم تعميم اللغة الفصحى وتيسيرها في نظام منسق يخفف ما قد يكون عالقاً بقواعدها من تطويل وتفريع وشذوذ على قلته .

وأما الذي يجب ان يبقى منها محكماً في امتحان كل قاعدة فإسقاط الإحتجاج بما يتطرق اليه الاحتمال، وما تأخر زمان صاحبه عن زمن الاحتجاج، ومجهول القائل . ونرى اضافة القواعد الآتية :

١ ــ لايحتج للقاعدة بكلام له روايتان متساويتان في القوة ، احداهما تؤيدها والاخرى لاعلاقة لها بها ، لاحتمال ان تكون الثانية هي التي قالها المتكلم كالشاهد المتقدم في القاعدة (٧) ، وكالجر بـ (لعل) اعتماداً على احدى روايتين في بيت كعب بن سعد الغنوي :

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة  لعل أبا المغوار منك قريب [1]

والرواية الثانيـة : ( لعل أبي المغوار ) بالجر ، فترفض لاستدعائها إنشاء حكم جديد للأداة ( لعل ) هو الجر ، ولأن الاصل هو أولى بالاتباع وهو النصب بها .

وكذلك نرفض رواية المثل المشهور ( مكره اخاك لابطل ) ونقطع ان الاصل « مكره اخوك لابطل » حسب القاعدة المطردة ؛ وهي الرواية التي أثبتها وحدها الميداني صاحب مجمع الامثال .

---

(١) انظر مغني اللبيب ـ مادة ( لعل ) وشرح شواهد المغني للسيوطي ص ٢٣٦

٢ ــ لا يبنى على شاهد قبل تحريه والتوثق من ضبطه ، إذ كثيراً ماترد الشواهد في كتب النحاة محرفة ويكون موضع التحريف هو موضع الاستشهاد على القاعدة ، ولو حرر الشاهد ماكان للقاعدة مؤيد ، واليك بعض الامثلة :

أ ـ زعم بعض النحاة جواز الجمع بين « كي » و « أن » واستشهد بالشاهد المجهول القائل الذي مر آخر القاعدة التاسعة ، وبقول جميل الذي رووه بهذا النص :

فقالت : أكلّ الناس أصبحت مانحاً لسانك كيما ان تغر وتخدعا [1]

وبالرجوع الى الديوان نجد النص : لسانك هذا كي تغر وتخدعا

وبهذا تنهار القاعدة من أساسها إذ لا شاهد معروفاً يؤيدها .

ب ـ قالوا : ان نون التوكيد الخفيفة قدتحذف ويبقى آخر الفعل مفتوحاً دليلا عليها واستشهدوا بقول الأضبط بن قريع الذي رووه :

لاتهين الفقير علّك أن تر كع يوماً والدهر قد رفعه

وهذه الرواية محرفة فالبيت من قصيدته التي مطلعها :

لكل هم من الهموم سعة والمسي والصبح لافلاح معه

من البحر المنسرح ، وروايتهم له جعلته من البحر الخفيف ، وصحة البيت:

لاتحقرن الفقير علك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

وبهذا تبقى قاعدتهم مفتقرة الى شاهد قوي .

ح ــ سلم صاحب مغنى اللبيب للذين زعموا جواز حذف الفعل المنصوب بـ ( كي ) مع بقائها بقوله : « نعم وقع في صحيح البخاري في تفسير « وجوه يومئذ ناضرة » : [ فيذهب كيما فيعود ظهره طبقاً واحداً ] أي ( كيما يسجد ) ، وهو غريب جداً لايحتمل القياس عليه . »

وكل مافي الامر هو ماقرره ابن حجر بقوله : « الثابت في نسخ البخاري

التصريح بـ ( يسجد ) ، فلعل ابن هشام وقعت له نسخة بحذف [يسجد] »[1]!!

قلت : لو تحرى ابن هشام لفظ الحديث في غير نسخة لم يتوهم ماتوهم ، وإذاً لاصحة لهذا الحكم : اجتماع ( كي ) و ( أن ) على فعل واحد[2].

٣ ــ لايكتفى بالكلام الابتر اذ كثيراً مايكون داعية الخطأ في المبنى والمعنى، فيجب الرجوع الى الشاهد في ديوان صاحبه ان كان شعراً، وفي مصادره المحققة الاولى ان كان نثراً لمعرفة ماقبله وما بعده ؛ واليك المثال :

هناك شواهد شعرية قليلة فيها لغة « أكلوني البراغيث » اضطر فيها الشاعر الى مطابقة الفعل المتقدم للفاعل المتأخر في التثنية والجمع ، وقد أراد نحاة أن يخرجوا هذه اللغة التي نسبت الى بعض طيء وبعض أزد شنوءة، فأتعبوا أنفسهم في غير طائل ، لأن هذه الروايات ان صحت فهي شاذة ولغتها رديئة لايحتج بها ولم يخطىء من نبزها بلغة « أكلوني البراغيث »

لكن بعضاً من فضلاء النحاة الأقدمين توهموا فظنوا آية « وأسروا النجوى » وحديث « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » من هذه اللغة، وكان الذي أوقعهم في الضلالة اكتفاؤهم بجملة من آية وجملة من حديث ، أما الآية

---

(١) جعل ابن هشام هذا من الضرورة ــ انظر مغني اللبيب مادة ( كي ).

(٢) هذا وهناك رواية النحاة الكوفيين لبيت جرير شاهداً على النصب بنزع الخافض كالشمس شهرة :

تمرون الديار ولم تعوجوا  كلامكم علي اذاً حرام

وهي رواية خاطئة كان يجب ان ينبههم الى خطئها اختلاف الزمن الذي افسد المعنى ( تمرون ) و ( لم تعوجوا ) والذي قال جرير : « مررتم بالديار ولم تعوجوا » . أما القاعدة فصحيحة ولها شواهد غير هذا ، واما الاحتجاج ففاسد لتحريف الرواية ــ انظر ديوان جرير وشرح شواهد المغني للسيوطي ص ١٠٧

فلها أول : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون. لاهية قلوبهم وأسروا النجوى ، الذين ظلموا : هل هذا إلا بشر مثلكم »

فـ ( الذين ) ليست فاعلا لـ ( اسروا ) والواو في ( أسروا ) لاتعود إلى ( الذين ) كما توهموا ، بل الى ( الناس ) الواردة في اول الكلام ؛ أما (الذين) فهي فاعل لـ ( قال ) المحروفة ، كما يرد كثيراً في القرآن الكريم بإثبات المقول وحذف فعل القول ، وليس هنا مكان إيراد الشواهد الكثيرة على هذا الاسلوب القرآني المعروف .

وأما الحديث فزعموا أن واو ( يتعاقبون ) تعود الى ( ملائكة ) التي بعدها ، وليس ذلك بصحيح . فللحديث أول ذكر في موطأ مالك وغيره وفيه مرجع الواو وهذا نصه : « إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » .

وإذاً لاشاهد على هذه اللغة غير الضرورات الشعرية .

٤ ــ ينبغي التفريق بين مايرتكب للضرورة الشعرية ومايؤتى به على السعة والاختيار ، فان اطمأنت النفس الى بناء القواعد على الصنف الثاني ففي جعل الضرورات الشعرية قانوناً عاماً للكلام نظمه ونثره الخطأ كل الخطأ .

واليك بعض الشواهد التي تروى في كتب النحو وهي قطرة من بحر :

١ ــ ألم يأتيك والانباء تنمي  بما لاقت لبون بني زياد ــ قيس بن زهير العبسي
٢ ــ لن يخب الآن من رجائك من  حرك من دون بابك الحلقة ــ أعرابي؟
٣ ــ لكنني حيثما يثني الهوى بصري  من حيثما سلكوا أدنو فأنظور
٤ ــ وما كان حصن ولاحابس  يفوقان مرداس في مجمع ــ العباس بن مرداس
٥ ــ طلب الأزارق بالكتائب إذهوت  بشبيبَ غائلة الثغور غدور ــ الأخطل

فزعموا اعتماداً على الشاهد الاول أن العرب قد ترفع الفعل بعد ( لم)، وأن ( لن ) قد تجزم المضارع اعتماداً على الشاهد الثاني ، وأنه يجوز أن نشبع (فأنظر) بتوليد واو من الضمة اعتماداً على الشاهد الثالث ، وأنه يجوز منع المنوّن من الصرف اذا كان علماً[1] بناء على الشاهد الرابع والخامس الخ . . الى شواهد كثيرة ألجأت فيها الضرورة الشاعر الى خلل في نظم تراكيبه . فهذا كله خطأ ارتكب ضرورة حين كان الشعر يرتجل فلا يجوز بناء حكم عليه البتة ، بل ان مثل هذه الضرورات القبيحة غير سائغة اليوم بوجه من الوجوه لأن الشعر لا يرتجل في زماننا هكذا .

## (٦)

### خاتمة

الآن ، وبعد ما تقدم كله ، نستطيع ان نجمل الرأي في صنيع النحاة المتقدمين حول الاحتجاج في النظرات الآتية :

١ ــ لم يصدروا في تنسيق شواهدهم عن خطة محكمة شاملة ، فأنت تجد في البحث من بحوثهم قواعد عدة ، هذه تستند الى كلام رجل من قبيلة اسد ، وتلك الى كلام رجل من تميم ، والثالثة الى كلمة لقرشيّ . وتجد على القاعدة تفريعاً دعا اليه بيت لشاعر جاهلي ، واستثناء مبنياً على شاهد واحد اضطر فيه الشاعر الى ان يركب الوعر حتى يستقيم له وزن البيت . ولعل عذرهم في ذلك انه ليس

---

(١) مذهب المرحوم ابراهيم مصطفى في كتابه احياء النحو ص ١٦٩ ، ١٧٩

لديهم نصوص مصنفة على القبائل ، فلم يعن الرواة ولا المؤلفون الاولون بأن يذكروا كلام كل قبيلة في نسق ، حتى يأتي النحوي فيستنبط قواعد كل لهجة على حدة خطوةً اولى ، ثم يبحث عن الأشيع في لهجات القبائل فيقعّد عليه قواعده . ويصدق عليهم في ذلك تماماً ما يأخذه الأستاذ احمد امين على واضعي المعاجم الذين حشروا اللغات واللغيات واللهجات والتصحيفات والضرورات معاً فتضخمت معاجمهم تضخماً زائداً « وكان الأولى ان تستبعد اللثغات ويحقق التصحيف وتترك اللهجات[1] » ، واذاً لاختصرنا حيزاً كبيراً من معاجمنا . ولرمينا بكثير من البلبلة والفوضى والاضطراب يعانيه متصفح هذه المعاجم ، الذي كثيراً ما يحار بين الأقوال والروايات المتضاربة: أيها يأخذ وأيها يدع ؟

وهذا نفسه فعله النحاة ، فلو سئلنا : على لغة اية قبيلة ينطبق نحوكم الذي تدرسونه اليوم؟ ما أستطعنا تسمية القبيلة باطمئنان ، بل نكون اقرب الى دقة اذا أجبنا أنه أسس على خليط لا نظام له مما روي على انه تكلمت به العرب .

---

(١) انظر ضحى الاسلام ١/٣١٩ . فكثيراً ما تتغاير اللهجات فتضع حرفاً مكان حرف فـ « عثا و عاث » و « الشائع والشاعي » وما اليها خلاف لهجات فحسب ، لكن المدونين جعلوها مواد مستقلة فزادوا في حجم موسوعاتهم زيادة غير قليلة ، والمادة في الاصل واحدة.

وعلى أن الخليل بن احمد رحمه الله وضع بما أوتي من ذهن رياضي علمي منظم خطة قريبة ، وأخذ نفسه ــ فيما نظن ــ بها ، ان الذين أتوا بعده انحرفوا كثيراً عن المنهج وحشروا في بحوثهم ما قرب وما بعد ، وما صح ولم يصح ، إرادة المكاثرة والمفاخرة في العلم :

قال رجل للخليل: « أخبرني عما وضعت مما سميت عربية : أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ » فقال « لا » فقال : « كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ » فقال : « أحمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات ، »[1] .

فأنت ترى أن إمام البصريين خط للنحو خطة هي أشبه بالتشذيب منها بالتنظيم ، فقد أهدرَ كثيراً مما يتكلم به العرب لتسلم له قواعد غالبية بقدر الامكان .

وعلى قصور هذه الخطة فقد كان الخير في اتباعها وتعاهدها بالإحكام مع الزمن ، فنهج قريب يتبع بأمانة وإصلاح خير من لا نهج ، وهذا ما لم يكن مع الاسف الشديد .

٢ ــ لم يدرسوا الرواة وأحوالهم ومن منهم الثقة الضابط ومن منهم الوضاع والمخلط ، فلم نعرف عن طبقات رواة اللغة ما عرفنا عن طبقات المحدثين ، ولا حظي فن الرواية اللغوية ببعض ما حظي به فن

---

(١) انظر ضحى الاسلام ٢/٢٥٩

رواية الحديث ، ومع أن بعضهم حاول تقليد المحدثين في الجرح والتعديل فكان ينص في ترجمة الخليل وابي عمرو بن العلاء مثلاً على أماناتهما وينص في ترجمة قطرب بما يشعر بكذبه ، ويشير إلى تزيّد الاصمعي .. إن صنعهم أشبه بتقليد ابتدائي لا علمية فيه .

٣ ــ لم يحققوا النصوص التي بنوا عليها لا سنداً ولا متناً ، أما السند فكثيراً ما تجد الشاهد في كتبهم منسوباً الى غير قائله ، وأما المتن فكثيراً ما تجده مروياً عندهم على غير الصحيح ويبنون قاعدتهم على موضع الخطأ منه[1] . وكان عليهم أن يتقصوا الروايات المختلفة ويحققوها متحرين صحيحها من زائفها ، وإذاً يستطيعون الاطمئنان الى ما يبنون عليها من قواعد .

---

«١» واليك أمثلة على ذلك :

١ ــ عرفت أنهم استشهدوا بهذين البيتين :

أردت لكيما أن تطير بقربتي ... فتتركها شنا ببيداء بلقع ،

فقالت أكل الناس اصبحت مانحاً ... لسانك كيما أن تغر وتخدعا

على جواز ورود « أن » بعد « كي » في الشعر ، وقالوا في البيت الاول « كي » أما تعليلية مؤكدة للام ، واما مصدرية مؤكدة بـ « أن » ويرى الاخفش أن « كي » حرف جر وأن الناصب للفعل كلمة « أن » اما ظاهرة كما في البيت الثاني واما مضمرة .

اما البيت الاول فلايعرف قائله كما تقدم ، ولذا لايصح الاحتجاج به ، واما البيت الثاني فروايته خطأ ، وقد رآه السيوطي نفسه في ديوان جميل ليس فيه جمع ــ

ويرحم الله ابن سلام إذ قال« وجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر،

---

– «أن» و «كي» ورواية الديوان: لسانك هذا كي تغر وتخدعا

واذاً لا أصل لما ذكروا من جواز وضرورة وتخريج . فلا تجتمع «أن» و « كي » في نص صحيح .

انظر معاً : مغني اللبيب لابن هشام . مادة ( كي ) ، و( أوضح المسالك) للمؤلف نفسه: باب نصب المضارع، وشرح شواهد المغني للسيوطي:(شواهد كي) ص ١٧٣ وشرح شذور الذهب لابن هشام ص ٣٤٧ (مطبعة الاستقامة بالقاهرة)

٢ – قال سيبويه : « ومما جاء من الشعر في الاجراء على الموضع (أي مراعاة المحل لا اللفظ في الاعراب ) قول عقيبة الاسدي :

« معاوي اننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا

أديروها بني حرب عليكم ولاترموا بها الغرض البعيدا» – الكتاب ١/٣٤

وأبيات عقيبة هذا مشهورة ، كلها مجرور الآخر ومنها :

أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد

واذاً لا شاهد فيها على ما أورده سيبويه . وقد حاول بعضهم الاعتذار عن سيبويه بأن مقطوعة أخرى فيها هذا البيت ، منصوبة الآخر ومنها البيت الثاني لشاعر آخر هو ابن الزبير الاسدي، ولا عذر بعض تصريح سيبويه بأن شاعره عقيبة الاسدي.

انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٤٥ ( بتحقيق احمد محمد شاكر ) وخزانة الادب للبغدادي ٢/٢٢٥ ( طبعة السلفية ) .

٣ – استشهدوا على لغة ( أكلوني البراغيث ) بالحديث الصحيح :

« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ... »

واكثر ابن مالك من الاستشهاد به حتى صار يسمي هذه اللغة ( لغة يتعاقبون) ولو تحروا الشاهد لعلموا أنه مختصر من حديث مطول رواه البزار أوله :

« ان لله ملائكة يتعاقبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .. » =

ولا يضبط الشعر إلا أهله [1] .

٤ ــ تفريطهم بقسم كبير من اللغة حين أهملوا الاحتجاج ببعض القراءات التي قرىء بها القرآن الكريم، وأهملوا الاحتجاج بالحديث النبوي وفي ذلك إهدار لجزء غير يسير من أبلغ الكلام العربي واعلاه. بل لقد أخطؤوا حين تهاونوا بكتب الامام الشافعي ومن في طبقته من الفصحاء الذين نشؤوا في بيئة سليمة ولم يتطرق الفساد الى لغتهم، وهذه إضاعة أسف لها حتى علماء المشرقيات من الأجانب ، والحق كل الحق معهم ، فقد ذهبوا الى ان « بتدوين مثل الشافعي علوم الشريعة إغناءً للغة العربية بوسائل التأدية، اكثر مما أغناها به كثير من الشعراء. وهذه الناحية ـ مع الأسف ـ اهملها علماء الشرق إهمالاً تاماً واشتغلوا بشواهد لشعراء مجهولين . فكان هذا الاشتغال عبثاً اذا قيس بذلك الإهمال » [2] .

---

= واذاً لا شاهد فيه وبقيت ( لغة البراغيث ) محتاجة الى شاهد صحيح .
ــ انظر الاقتراح للسيوطي ص ٢٢

(١) طبقات الشعراء ص ٥٠

(٢) ( التطور النحوي ) لبرجستراسر ( أملاه في كلية الآداب بالجامعة المصرية ) ص ١٣٨ . هذا وقد عرف الاقدمون للشافعي قوة سليقته وعلو كعبه في اللغة حتى وصفه عالم من أهل زمانه هو عبد الملك بن هشام صاحب السيرة ( ــ ٢١٣ ) فقال « جالست الشافعي زماناً فما سمعته تكلم بكلمة الا ( اذا ) اعتبرها المعتبر لايجد كلمة في العربية أحسن منها » و « كان قوم من أهل العربية

ومما تقدم تعلم ان الصورة التي تتمثل في ذهن من يعالج النحو واللغة في كتبها القديمة غير صحيحة التعبير ولا صادقته عما كانت عليه اللغة العربية شعراً ونثراً ، وستسلّم الى حد بعيد بما ذهب اليه اسرائيل ولفنسون من ان حالة اللغة العربية عند ظهور الاسلام يجب ان تبحث في القرآن اولاً . ثم في الأحاديث ثانياً ، ثم في الأمثال ثالثاً ... « ثم في الشعر الجاهلي على تحفظ »[1] .

ان ما مر بك من هذا البحث حتى الآن عن نقص في النظام والتحري في مرويات اللغويين والنحاة ، يجعلك تسلم بما ذهب اليه هذا العالم دون تردد .

---

=يختلفون الى مجلس الشافعي معنا ويجلسون ناحية ، فقلت لرجل من رؤسائهم : « انكم لا تتعاطون العلم فلم تختلفون معنا ؟ قالوا : « نسمع لغة الشافعي » . وتصحيح الاصمعي عليه شعر الهذليين مشهور عند الادباء ، وبحق قال ابن هشام المذكور : « لغة الشافعي يحتج بها » انظر ارشاد الاريب ١٧ / ٢٩٩ .

(١) انظر تاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولفنسون ص٢١٣ - ٢١٧ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ) .

# القياس